



تجليات الرمز الصوفي في الشعر الإسباني الحديث

– فيدريك غارسيا لوركا نموذجاً –

أمينة بوكيل

جامعة جيجل – الجزائر

leaminaz@yahoo.fr

Received: 02 Oct. 2014,

Revised: 30 Nov. 2014, Accepted: 3 Jan. 2015

Published online: 1 (May) 2015

تجليات الرمز الصوفي في الشعر الإسباني الحديث -فيدريك غارسيا لوركا نموذجا-

أمينة بوكيل

جامعة جيجل-الجزائر

الملخص

ما زالت العلاقات التاريخية العربية الإسبانية مستمرة إلى يومنا هذا، على الرغم من خروج العرب من الأندلس في آخر معركة لهم بعد سقوط مملكة غرناطة ١٤٩٢م، وكان الأدب الإسباني سباقا في الاحتكاك بالتراث العربي في أشكاله المختلفة؛ ليتخذ الأديب الإسباني المعاصر مرجعية هامة ينهل من رموزها ومواضيعها في كل مرة، ويمثل المكون الثقافي الأندلسي عنصراً فعالاً وضرورياً في تفاعل الثقافتين، رغم معارضة بعض المثقفين الإسبان على هذا التقارب. وفي ضوء مفاهيم الأدب المقارن سنحاول في هذا المقال أن نلقي الضوء على تجليات الرمز الصوفي في الشعر الإسباني الحديث من خلال شعر لوركا الذي يعكس بعضاً من تجليات الإبداع العربي. وسنتناول في البداية الرمز الصوفي وآليات التأويل، ثم نلقي الضوء على كيفية تلقي المستعربين الإسبان النص الصوفي من منظور حواري، لنفصل في الأخير مظاهر تجلي الرمز الصوفي في شعر "لوركا" من خلال رمز "الماء" وأهم دلالاته.

الكلمات المفتاحية: النص الصوفي، الأندلس، الاستشراق الإسباني، لوركا، إسبانيا.



Manifestation of the Sufi Symbol in the Spanish Modern Poetry

- Federico García Lorca as an Example -

Boukail Amina

University of Jijel - Algeria

Abstract

The historic Spanish-Arab relations did not stop after the fall of Andalusia. It continued in the cultural interaction and dialogue. The Spanish literature is the first to interact with Arab heritage in its various forms, and became an important reference contemporary for Spanish modern writers.

In this article we will try, in light of the concepts of comparative literature to analyze manifestation of the Sufi symbols in the Spanish modern poetry for example Federico García Lorca, where we will stop at the mystic symbol and mechanisms interpreted. Then we will discuss how the Spaniards Orientalists received the mystic text, and we will finish by analyzing the manifestation of the Sufi symbols in Lorca's poetry like "water" and their significance.

Keywords: Sufi text, Andalusia, Spanish orientalism, lorca, Spain.

تجليات الرمز الصوفي في الشعر الإسباني الحديث -فيدريك غارسييا لوركا نموذجا-

أمينة بوكيل

جامعة جيجل-الجزائر

المقدمة:

لقد أدرك الشرق والغرب في العقود الأخيرة أهمية الحوار بين الثقافات ومواصلة الالتقاء بالأخر المختلف ومحاولة فهمه، ذلك أن الحوار يشكل الآن انشغالا عالميا في إعادة أسنة الإنسان من خلال إعادة قراءة التاريخ وإلقاء الضوء خاصة على الجوانب التي لا تزال في منطقة المسكوت عنه.

وتشكل الأندلس ملتقى هاما لمختلف الثقافات التي ازدهرت في الحضارة الإسلامية وانصهرت في بوتقتها العناصر الثقافية المختلفة، حيث كان المجتمع الأندلسي متنوع الأجناس البشرية حيث يحتوي على العناصر الآتية: الإسبان-العرب-البربر-المولدين-المستعربين-الصقالبة-النورمان.

لهذا «كان من الطبيعي أن تتصل هذه العناصر بعضها ببعض وتتلاقى - سواء بالمصاهرة أو العشرة أو الجوار أو التعامل- وأن يأخذ بعضها من بعض مما كان له أثره في إثراء الحضارة الأندلسية وازدهارها»^١

وهكذا نتجت عن هذا التنوع حضارة أندلسية مميزة بفعل علاقات التأثر والتأثير التي شملت العادات والتقاليد فأثرت الشخصية الأندلسية وطبعتها بطابع مميز.

مما جعل هذه الفترة تشكّل مرحلة هامة من تاريخ الأدب الإسباني، فلا يمكن فهم العديد من النصوص الأدبية الإسبانية فهما عميقا دون أخذ بعين الاعتبار الإطار العربي والعودة إلى المرجعيات العربية، ذلك أن العلاقات التاريخية العربية الإسبانية لم تقطع بعد سقوط الأندلس بل استمرت في التفاعل، وأثار هذا التفاعل الكثير من الجدل في العصر الحديث والعديد من التساؤلات حول الهوية الثقافية الإسبانية.

١/ الرمز الصوفي وآليات التأويل:

يرى «تودوروف» أن الفرق الحقيقي بين الخطاب والرمز يتجلى عندما يبرز مكون المعنى الحقيقي والمعنى المجازي الذين يكونان الخطاب حيث يقوم المتلقي بتفكيك شفرات الخطاب كلما قام بتأويل الرموز^٢.

وبالتالي فكل قارئ للشعر الصوفي يحاول استخراج المعاني العميقة المختبئة بين سطور من خلال اتخاذ التأويل وسيلة مساعدة على اصطیاد هذه المعاني، ولا يتحقق ذلك إلا عندما يرغب المتلقي وبهذا يصبح التأويل الرمزي استراتيجية تأويلية يحدد المتلقي معالم خريطتها المعرفية.

وفي هذا الإطار المعرفي يتجه الأدب الصوفي اتجاهها رمزيا في معالجته الظواهر الكونية وفي

٢- فريد الزاهي، النص والجسد والتأويل المغرب: إفريقيا الشرق ٢٠٠٢م) ٥٧.

١- حسين يوسف دويدار، المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية ١٩٩٤) ١٢.

ولكن لو عالجتنا النص الصوفي وتحليلات رموزه من منظور مقارن لوجدنا رموزه حاضرة حضورا جليا في الآداب العالمية بسبب كثافة معانيه والطابع الإنساني العالمي للنص الصوفي لاسيما في الشعر الإسباني، فكيف تلقى الأدباء والمستعربون الإسبان النص الصوفي وما هي الوسائط وآليات التلقي؟

٢/النص الصوفي في ضوء دراسات المستعربين الإسبان:

أثار موضوع «الهوية الإسبانية» الكثير من الجدل في العصر الحديث خاصة فيما يتعلق بالأندلس بين منكر لتأثير هذه الفترة في مسار تاريخ إسبانيا، وبين معترف بأهمية هذه المرحلة وتأثيرها الواضح في الثقافة الإسبانية، وما زاد من حدة هذا الجدل هو نظرة بعض الأوروبيين المشككة في انتماء إسبانيا إلى الغرب وعادة ما يعبر عنه بهذه العبارة الساخرة (Spain is different)^٧، وكأنها كيانا مختلفا عن الغرب ولعل عبارة «ألكسندر دumas» (Alexandre Dumas) هي الأكثر قسوة ودلالة في قوله:

«إن إفريقيا تبدأ عند تخوم البيريني»^٨

تدل هذه العبارة على أن حدود العالم الغربي تنتهي عند جبال البيريني الواقعة في غرب فرنسا أما إسبانيا فيرى صاحب القول أنها تنتمي جغرافيا وثقافيا إلى إفريقيا،

وفي ذلك إشارة واضحة إلى الفترة الإسلامية من تاريخ إسبانيا.

أثيرت هذه القضية بإسهاب في دراسات المستعربين الإسبان باعتبار أن الاستعراب الإسباني فضاء معرفي ترصد فيه الذات وملاحجها من خلال دراسة الآخر والوعي بواسطة الحوار وإعادة بناء العلاقات، ويتم ذلك من

٧- ألكسندر دumas كاتب فرنسي ولد سنة ١٨٠٢ وتوفي سنة ١٨٧٠ كتب العديد من المسرحيات أشهرها: هنري الثالث وبلاطه، الملكة مارجوت.

8- Eduardo Diez Caso, Les orientalistes de bécoule espagnole (France: ACR Edition 1997) 9.

التعبير عن التجربة الروحية في قالب فني ولهذا ابتدعوا لأنفسهم مصطلحات ومفاهيم خاصة بهم تشكل المعجم الصوفي، «وليس الرمز في الشعر الصوفي راجعا إلى الكنايات البعيدة وحدها وإطلاق أسماء من قبيل الرموز الخفية على مسميات لا يراد التصريح بها»^٩

ونجد في النصوص الصوفية «رمزا غريبا ونمطا عجيبا، وبعدا عن التصريح وإيثارا للتلويح، واعتمادا على الإشارة، وعلاقات خفية في التجوز بالكلام، ودرجات بعيدة بين المعاني الحقيقية والمعاني اللزومية لا يكاد يفهمها فاهم، ولا يصل إلى جوهرها عالم أو حالم»^{١٠}.

فعمت النصوص الصوفية حركة داخلية تحرك بقوة طريف التجربة الصوفية المتمثلة في الكتابة والقراءة في الوقت نفسه.

بقي النص الصوفي لمدة طويلة أسير الدراسات التاريخية الأيديولوجية ومحصورا في الشروحات اللغوية والتفسيرات الصوفية التي رافقت النص الصوفي منذ البداية^{١١}.

باعتباره نصا يفتقر للمعايير الجمالية والفنية فأقصى من دائرة الإبداع الأدبي، ليبقى في دائرة الهامش لعدة قرون باعتباره نصا مختلفا.

«ولم يكن اللجوء إلى الرمز والإشارة نتيجة لسبب وحيد هو تلك الضغوط مهما كان مصدرها، بقدر ما كان يتم كذلك عن وعي بأن اللغة ليست وسيطا طبيعيا شفافا، يستطيع الإنسان من خلاله إدراك حقيقة ما. بل هي عالم لاحتواء المعاني اللطيفة التي لا يدركها إلا من عاشها أو استوعبها...»^{١٢}

٩- المرجع السابق، ٥٧.

١٠- محمد عبد المنعم الخفاجي، الأدب في التراث الصوفي (مصر: مكتبة غريب دت) ١٨١

١١- أمانة بلعلي: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة (بيروت-الجزائر: منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون ٢٠١٠) ١١.

١٢- المرجع نفسه، ٨٩.

مهد لهذه المرحلة الجديدة من الاستعراب المؤرخ الإسباني "أمريكو كاسترو" Américo Castro¹³ الذي لفت الانتباه إلى أهمية العنصر العربي في الثقافة الإسبانية، واعتبره عنصراً فعالاً وأحد مكونات الشخصية الإسبانية في كتابه "إسبانيا عبر تاريخها: المسيحيون والعرب واليهود"، كما يرى أن الشخصية الإسبانية تكونت عبر العصور في تعايشها وتداخلها مع العرب وأن إسبانيا كيان سياسي وثقافي، لم تبرز في الوجود إلا في القرن العاشر والحادي عشر أي حينما تفاعلت مع العرب، ويعترف بوجود العديد من المؤثرات العربية في الأدب الإسباني¹⁴.

وأثارت هذه الأطروحة الجريئة الكثير من الجدل والنزاع الفكري حتى بعد وفاة كاسترو، عارضه المؤرخون الإسبان في هذه القضية معتبرين العنصر العربي مصدر الفساد وكل المصائب التي عاشتها إسبانيا إذ أضرت - حسب رأيهم - الحروب عبر العصور بالاقتصاد الإسباني وحرمته من التصنيع على الطريقة الأوروبية¹⁵.

رغم هذه المعارضة الشديدة فإن تأثير أطروحة كاسترو استمر، ووجدت أفكاره صدى عند المستعربين الإسبان فيما بعد حيث ركزوا على جانب التأثير العربي في الأدب الإسباني في مختلف مراحل تطوره.

وفي ضوء هذه النقاشات لقي النص الصوفي اهتماماً خاصاً من طرف المستعربين الإسبان؛ لأنه نص يفيض بالقيم الروحية وذو نزوع دائم إلى الكمال والتسامي، ويتميز بطابع عالمي وإنساني غير محدود، وقد تناول بلاثيوس ظاهرة التصوف من عدة جوانب معرفية في إطار البحث عن تأثير

خلال قراءة الهوية الإسبانية وفق مقارنة التراث العربي وتحديد ترسباته في الثقافة الإسبانية وللإستعراب الإسباني خصوصية تجعله يختلف عن الإستشراق الأوروبي، ويلخصها المستعرب الإسباني "أسين ميغل بلاثيوس" (Miguel Asin Palacios)¹¹ قائلاً:

"يختلف الاستعراب الإسباني عن الاستعراب الذي تطور في أوروبا، فهو ليس ناتج عن فضول علمي خالص... وليس مجرد حماس تجاري وامبريالي، إن الدراسات العربية بالنسبة لنا هي حاجة خاصة، إذ أنها مرتبطة بتاريخنا وتكشف عن خصائص مهمة في أدبنا وفكرنا وفتننا...."¹¹

ونتجت هذه الخصوصية عن عاملين هما:

- العامل التاريخي: يتمثل في الفترة الإسلامية التي عاشتها الأندلس لعدة قرون واستمر تأثيرها حتى بعد سقوط الأندلس.

- العامل الجغرافي: من خلال قرب إسبانيا من العالم الإسلامي مما سهل الاحتكاك التجاري والثقافي.

أما من الناحية التاريخية فنشأ الاستعراب الإسباني نشأة تقليدية في القرن السابع عشر والثامن عشر ارتبط بالنظرة الأوروبية للشرق كعدو متربص يهدد كيان أوروبا¹²، وتطور الاستعراب الإسباني في نهاية القرن التاسع عشر حيث أعيد قراءة تاريخ إسبانيا بمنهجية علمية وموضوعية بعيداً عن حساسيات الماضي، وقد

٩- يعد مصطلح «الاستعراب» أكثر دقة من مصطلح «الاستشراق» لأنه يحدد العلوم العربية خاصة وأحوال العالم العربي ويفضل أغلب المثقفين الإسبان استخدام مصطلح «الاستعراب» على مصطلح «الاستشراق».

١٠- أسين بلاثيوس أب كاثوليكي ومستعرب إسباني مشهور عاش بين (١٨٧١-١٩٤٤) مختص في فترة الأندلس، اهتم بالتأثير الإسلامي في الكوميديا الإلهية، أهم مؤلفاته: صوفية الغزالي، دانتى والإسلام، ابن مسرة ومدرسته.

11- Asin Miguel Placios, Sadilies y Alumbrados (Madrid: Hiperión- Juvenile Nonfiction 1990) 7.

12- Berabé Lopez García, Africanismo y orientalismo en España (1860-1930) (Madrid: Revista Awaq Anejo, 1990) 321.

١٣-أمريكو كاسترو مؤرخ إسباني ولد سنة ١٨٨٥ وتوفي سنة ١٩٧٢، مختص في التاريخ الثقافي لإسبانيا، أشهر مؤلفاته: فكر سيرفانتس، الحقيقة التاريخية لإسبانيا، تعليم اللغة في إسبانيا..

١٤- لوثي لويث بارلت، أثر الإسلام في الأدب الإسباني: من العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر، ترجمة: محمد نجيب بن جميع (تونس: منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات ١٩٩٠) ٣٢-٣٢.

١٥- لمرجع نفسه، ٣٥.

ورمز "المجنون" في شعره واتحاده بالمحب الذي برز في ديوان "ابن عربي" و"ابن عباد الرندي" و"جلال الدين الرومي"¹⁹، وترجمت في الوقت نفسه العديد من النصوص المتصوفة الأندلسية إلى اللغة الإسبانية والإنجليزية، وناقشت آثار النص الصوفي في نصوص العديد من الأدباء الإسبان واعتبرته مصدراً مهماً لا يمكن تجاهله كما أسهم في ثراء الثقافة الإسبانية.²⁰

ما نلاحظه في دراسات المستعربة أنها اشتملت التصوف العربي والتصوف الفارسي أيضاً، واتجهت جهودها أيضاً إلى ترجمة النصوص الصوفية من العربية إلى لغات أخرى، رغم أن هذه الترجمة تحتاج إلى تمكن كبير من اللغة العربية لأن لغة النصوص الصوفية هي نصوص مفرقة في الرمزية، وتتجاوز حدود اللغة العادية، ويدل ذلك على انفتاح المستعربة ووعيها بأهمية النص الصوفي باعتباره جسراً للتواصل بين الثقافتين العربية والإسبانية.

يوجد العديد من المستعربين الإسبان الذين تناولوا النص الصوفي مصدراً من مصادر الأدب الإسباني، وقد أسهمت دراساتهم في تجاوز حساسيات الماضي والتخفيف من الجدل القائم حول الهوية الإسبانية، من خلال الاعتراف بتأثير الأخرى في إطار الدراسات العربية الإسبانية المقارنة.

٣/ تجليات الرمز الصوفي في شعر لوركا (تشكلات رمز الماء نموذجاً):

يدل تأثير أدب ما على أدب آخر على أن الأدب المؤثر هو أدب أصيل يمتاز بقوة إبداعية ويبعد إنساني، وفي هذا السياق تبرز الأصالة في طريقة التعبير والاهتداء إلى معان جديدة، كما يتميز بطرافة الأشكال الأدبية وتلاؤمها مع المضامين المعبر عنها.²¹

19- Luce López Baralt, Culturas en la Edad de Oro (Madrid: Editorial Complutense 1995) 19.

20- المرجع نفسه، ص 21.

21- محمد طرشونة، مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة (تونس: مؤسسة باي للنشر والطباعة والتوزيع 1997) 62.

هذه الظاهرة في الثقافة الإسبانية وتحديد معالمها ووقف عند أهمية البحث عن المؤثرات العربية من أجل قراءة واعية وشاملة للأدب الإسباني وعامل أساسي في الحوار مع الآخر، واعتبر المكون العربي جزءاً من تاريخ إسبانيا وسيرورتها المعرفية، وتناول في البداية المذهب الشاذلي في التصوف في الأندلس، وقارن بينها وبين الطوائف المسيحية والحركات الدينية في أوروبا، وتجاوز تحديد أوجه الشبه إلى تقديم أدلة تاريخية تبين تأثير هذا المذهب في كتابات رجال الكنيسة حيث وجد لتأملاتهم المسيحية جذوراً إسلامية، وانتقال العديد من الرموز الصوفية إلى كتابتهم، كما حل قضية "الإلهام" ودورها في تصفية القلب وتنقيته من الأشياء التي تشغله¹⁶

كما ناقش بلاثيوس قضية المصادر العربية في الكوميديا الإلهية في رسالة الدكتوراه سنة 1919، وأثارت هذه الرسالة تساؤلات جوهرية حول حقيقة اطلاع "دانتى" على مؤلفات ابن عربي حيث تأثر بقصة "الإسراء والمعراج"، وانقسم الباحثون بين مؤيدين ومعارضين لهذا الرأي ولا يزال هذا الجدل في أوروبا إلى حد الآن.¹⁷

وتتميز مقاربات آسين للنص الصوفي بأنها موسوعية وإن كان يغلب عليها الجانب التاريخي.

أما من الناحية الفنية فقد عمقت هذا الجانب المستعربة الإسبانية «لوثي لوباث بارلت» (Luce López-Baralt)¹⁸ وتناولته بإسهاب في مؤلفاتها التي تندرج ضمن الدراسات العربية الإسبانية المقارنة، ناقشت انتقال الرموز الصوفية إلى الشعر الإسباني خاصة الديني الوسيط كشعر "خوان دي لاكروث" فحللت رمز "الليلة الظلماء"

16- Asin Palacios, Sadilies y Alumbrado, 267.

17- للمزيد من التفصيل ينظر:

Asin Palacios, La escatología musulmana en la Divina Comedia (Madrid: Editoria Plutarco 1931)

18- لوثي لوباث بارلت هي مستعربة إسبانية وأستاذة الأدب المقارن بجامعة بورتوريكو، اهتمت في كتاباتها بالتأثير العربي في الأدب الإسباني الوسيط أشهر أعمالها: جان الصليبي والإسلام، أثر الإسلام في الأدب الإسباني: من العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر.

قال: بل كانت لحظة مشؤومة وإن كانوا يرددون عكس ذلك في المدارس، لقد فقدنا منذ تلك اللحظة حضارة جديرة بالإعجاب... فقدنا شعرا وملكا وعمارة وفنا ورهافة حس لا مثيل لها في العالم، لكي يتحول بلدنا بعد ذلك إلى مدينة فقيرة جبانة... بلد تضطرب فيه أسوأ البرجوازيات الإسبانية^{٢٧}.

تدل هذه التصريحات على تواصل عفوي وواع في الوقت نفسه مع التاريخ العربي لإسبانيا دون أي عقدة.

وأطلع لوركا على نفائس الشعر العربي القديم وفي مقدمة هذه النصوص قصائد ابن عربي من خلال كتاب "الشعر العربي القديم في إسبانيا وصقلية" للمستشرق الألماني "دولفوري سيشاك" وشجّعه "إيميليو غوميث" (Emilio García Gómez)^{٢٨} أستاذ اللغة العربية في جامعة غرناطة على قراءة المزيد من نصوص الشعر العربي واكتشاف كنوزه.

مما سبق تبدو طبيعة علاقة لوركا بالثقافة العربية التي نشأت عن قراءته لترجمات للشعر العربي دون أن ننسى عاملاً آخر هام وهو انحدار الشاعر من مدينة غرناطة التي لا تزال شاهدة على مجد الحضارة العربية الإسلامية التي مرت يوماً من هناك، وقصورها وشوارعها تروي تلك التفاصيل التاريخية المذهلة.

من الصعب تناول كل الرموز الصوفية التي تجلت في شعر لوركا ولهذا سيقصر هذا المقال على رمز واحد هو "الماء" الذي تجلى بكتافة في ديوان "تمريرت" فكيف تجلى ووظف في هذا الديوان؟

تعتبر العناوين مفاتيح تساعدنا على فتح أبواب النص الموصدة وكشف دلالاته المخترنة في سطورها، وهذا ما أبرزته السيميائية الحديثة التي ترى أن

٢٧- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

٢٨- إيميليو غوميزهو مؤرخ ومستعرب إسباني، ولد سنة ١٩٠٥ وتوفي سنة ١٩٩٥، ترجم العديد من النصوص الشعرية العربية الأندلسية، أشهر مؤلفاته: القصيدة العربية الأندلسية، خمسة شعراء مسلمين.

وكل هذه الخصائص المذكورة تجتمع في النص الصوفي برموزه وتعاييره لكن كيف تعرف لوركا على الأدب العربي عامة والنص الصوفي على وجه الخصوص؟

إن علاقة الشاعر لوركا بالثقافة العربية علاقة وثيقة ذات جذور تاريخية، قد اعتبر لوركا منذ البداية التاريخ الإسلامي جزءاً منيراً من تاريخ إسبانيا وصرح عدة مرات قائلاً:

"العربي (Morisco)^{٢٩} نحمله جميعاً في ذواتنا"^{٣٠} وفي مقابلة أجراها معه الصحفي الإسباني "مينديث دومينغيث" (Méndez Domínguez) سنة ١٩٢١ يقول فيها بأن لوركا يؤمن بشكل كبير بالعروبة وهو عربي أكثر منه إسباني^{٣١}.

كما وصف لوركا الحالة التي تجتاحه وهو في جبال "سيرا نفادا" في الولايات المتحدة الأمريكية قائلاً:

"إنّ المرء يشعر وهو في وسط "سيرا نفادا" أنه في قلب إفريقيا إنّ العيون التي هنا كلها إفريقية تماماً^{٣٢}، ذات شراسة وشعر يجعل من البحر الأبيض المتوسط قابلاً للصوص"^{٣٣}.

وعبر لوركا عن هذه القضية في لقاء أجراه معه الرسام "باجاريا" (Bagaria) سأله في محاوره سنة ١٩٣٦:

"هل ترى أن تسليم مفاتيح غرناطة كان عملاً موفقاً؟ يقصد استسلام غرناطة المتمثل في تسليم آخر ملوكها أبي عبد الله مفاتيح المدينة للملكين الكاثوليكين)

٢٢- هو مصطلح أطلقه الإسبان على العرب القادمين من شمال إفريقيا إلى الأندلس.

23- Federico García Lorca, Obras Completas (España: French & European Publications, Incorporated 1990) 1568.

٢٤- المصدر نفسه، ١٧٠٠.

٢٥- يقصد هنا شمال إفريقيا: تونس - الجزائر - المغرب
26- Mona Rabi Bastawi, Las influencias árabes en la obra de Lorca (Madrid: Anaquele de Estudios Árabes Vol 19 2008) 35.

سقتك عوادي المزن من صوبها الذي

يسح وتستمري السماكين بالوبل^{٣١}

يؤسس عنوان الديوان من البداية حوارا حميميا مع التاريخ المجيد لغرناطة ويربطه بذكريات طفولته.

وعندما تنتقل إلى قصائد الديوان نجد العنصر ”الماء“ في هذا الديوان مكانة هامة ممتزجا في تناغم مذهل مع مواضيع لوركا، دون أن ننسى أن عنصر الماء من عناصر التجربة الصوفية، تتعدد دلالاته الرمزية، فهو مصدر الحياة لقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا)^{٣٢}.

كما أنه الوسيلة المثلى للطهارة الروحية من أدراج الحياة المادية لقوله تعالى: (إِذْ يَفْشِكُمُ النَّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ وَيَنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رَجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ)^{٣٣}

ومن الماء يشق الصوفيون البحر ليعبروا عن اتساع المعرفة وما الصوفي إلا ذلك الغواص في عمق بحر المعرفة لتحقيق الانبعاث الجديد والتخلص التام من كل دناءة ووباء وهنا يصبح رمزا للطهارة.

ويقابل رمز الماء رمز النار ليتحول الماء إلى رمز الخصوبة والحكمة ولهذا قيل: ”ماء الحكمة يطفى نار الجهالة“^{٣٤}.

ويشغل هذا الرمز حيزا كبيرا في الفضاء الشعري اللوركي يعبر عن أعماق لحظات التحول في حياة الإنسان الإسباني في فترة الحرب الأهلية وتجلي في معجم شعري مائي: ماء-بحر-الموج-النهر-المطر-الدموع-ينابيع-غدران-صهاريج-نباتات مائية-الطحالب-الطيور المائية...

٣١- أحمد بن المقرئ التلمساني، نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس (بيروت: دار صادر مجلد ٢ ١٩٨٨) ٢٨٧.

٣٢- سورة الأنبياء، الآية ٣٠.

٣٣- سورة الأنفال، الآية ١١.

٣٤- خليل أحمد خليل، معجم الرموز (بيروت: دار الفكر اللبناني) ١٥٤.

”العناوين عبارة عن علامات سيميوطيقية تقوم بوظيفة الاحتواء بمدلول النص كما تؤدي وظيفة تناسية إذا كان العنوان يحيل على نص خارجي، ويمكن تشغيل العناوين علامات مزدوجة حيث أنها في هذه الحالة تحتوي القصيدة التي تتوجها وفي الوقت نفسه تحيل على نص آخر“^{٣٥}

ويحيلنا عنوان ديوان لوركا ”تمرير“ يحيلنا على مجموعة دلالات، فمن الناحية المعجمية تتكون هذه الكلمة من قسمين هما: كلمة ”تمر“ وهو فاكهة معروفة في الدول العربية، واللاحقة اللاتينية ”يت“ التي تدل على الكثرة.^{٣٦}

لهذا تحيلنا كلمة ”تمرير“ مباشرة على البساتين التي كانت تمتلكها أسرة لوركا، حيث تعج بالنخيل الباسقة وعراجين التمر الذهبية، ويؤسس العنوان من البداية فضاء تمتزج فيه العناصر العربية مع الإسبانية، لتسهم بشكل أو بآخر في حوار الذات مع الآخر.

كما أنه يعود بنا إلى زمن الأندلس حيث يرسخ الشاعر جماليات هذه الفترة ويستحضرها لقراءة واقع مرير، هذا العنوان يجعلنا نستحضر مباشرة أبيات ”عبد الرحمن الداخل“ واصفا نخلته:

”تبدت لنا وسط الرصافة نخلة

تتأنت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت شبيهي في التغرب والنوى

وطول اثثنائي عن بني وعن أهلي

نشأت بأرض أنت فيها غريبة

فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

٣٥- جميل حمداوي، «السيميوطيقا والعنونة»، مجلة عالم الفكر ٣ (مارس ١٩٩٧) ٩٨-٩٩.

٣٦- هذه الظاهرة موجودة في اللغة الإسبانية كما هو في كلمة «مدريد» التي أصلها عربي «مجرط» والمركبة من «مجرى» ومقطع «يت» للدلالة على كثرة مجاري المياه بهذه المدينة.

تستحم في اللهب

والعصفور يبكي

بأجنحة محترقة^{٢٧}

في هذه القصيدة يستمر الصراع بين الذات (المتملة في الفتاة الشقراء التي ترمز للأمة الإسبانية) وإصرارها على التطهير من تدنس الحرب وبقايا الرماد عن طريق الاستحمام بالماء الذي يرمز للمطلق والشمولية، وبين الواقع المرير الذي يفرض أبجدية الاستسلام ومنطق الدموع، ينتج عن هذا الصراع الكثير من المعاناة التي نقلت ذلك البلبل من حالة التغريد والفرح إلى حالة البكاء والحزن وهنا تخلى البلبل عن وظيفته من أجل تثبيت صورة الواقع المأساوي.

لرمز البلبل أو الطائر عموماً أهمية في الثقافة الإسلامية لأنه يحقق التوازن بين الإنسان والروح وورد في القرآن الكريم في سورة النمل الآية ١٦: (وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأَوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ)، واعتمد هذه الآية كثيراً من الصوفيين ومن بينهم "نجم الدين البكري" -الذي عاش في القرن الثالث عشر- قال: "الحمد لله الذي علمنا لغة الطيور" ولغة الطائر هي رمزية فهي لغة معرفة الكائن، وقد ألف الفيلسوف الشهير ابن سينا كتاب "رسالة الطير" الذي ترجم إلى عدة لغات وترك هذا الكتاب أثراً واضحاً في الفكر الأوروبي الوسيط^{٢٨}

ويتجلى رمز الماء في مظاهر مختلفة في قصيدة "جريح الماء" انطلاقاً من العنوان الذي يختزن العديد من التناقضات ليتحول إلى تجربة مأساوية تحركها عدة أطراف بين جدلية النفي والإثبات:

"أريد أن أنزل البئر

وأريد أن أتسلق أسوار غرناطة

...وفوق رأسه تاج من الندى

شكلت هذه العناصر نسقاً مائياً يتلون بطابع مأساوي يعكس الواقع المتناقض مختزلاً حركة التاريخ الإسباني الذي مزقته الحرب الأهلية^{٢٩} في قوله:

"أيدي الإنسان ليس لها معنى

سوى أن تقلد فعل الجذور الدفينة في الأرض

وكما أضيع في قلب أي طفل

ضعت مرات عديدة فوق البحر

جاهلاً الماء، باحثاً

عن موت نوراني يفنيني"^{٣٠}

وظف الشاعر في هذا المقطع رمز البحر الذي شكل حدة الانفعال الشعري، ومثل الفيض الداخلي داخل النص الشعري، لما يمثله من فضاء يؤسس لنسق الضياع وجدلية فقدان وأفق المجهول، فهو صورة للعنفوان والجبروت لينطلق الشاعر باحثاً عن الفناء الذي هو مقصد لكل صوفي.

يتخذ رمز الماء أبعاداً أخرى في قصيدة "الفتاة الذهبية" ليستمر بالانكسار في دواخل بنية النص من خلال صورة سردية تعري الواقع وتكشف تناقضاته التاريخية:

"الفتاة الذهبية

تستحم في الماء

والماء يكتسي لون الذهب

الطحالب والأغصان

تحفيها في الظل

والعصفور يغني

للفتاة الشقراء

...الفتاة الباكية

٢٥- كانت الحرب الأهلية الإسبانية بين أطراف مختلفة مثل الجمهوريين والقوميين والشيوعيين بين سنوات (١٩٣٦-١٩٣٩) تحت سيطرة الديكتاتور فرانكو الذي حكم حكماً مطلقاً لغاية ١٩٧٥، نتج عن هذا الصراع الكثير من الصراعات والضحايا.

٢٦- لوركا، فيديرك غارسيا، الديوان الكامل، ترجمة: خليفة محمد التليسي (ليبيا: الدار العربية للكتاب ١٩٩٢) ٢٦٤.

٢٧- المصدر نفسه، ٢٨١- ٢٨٢.

٢٨- لوئي لوباث بارالت، أثر الإسلام في الأدب الإسباني، ١٤٧.

مختلف العناصر ليسهم في إعادة قراءة الهوية الإسبانية والاعتراف بجميع مكوناتها دون إقصاء.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر العربية:

القرآن الكريم، رواية ورش.

أحمد بن المقري التلمساني: نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، مجلد، ١٩٨٨م.

المراجع العربية:

أمّنة بلعلي: تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ط١، منشورات الاختلاف، الدار العربية للعلوم ناشرون، الجزائر، بيروت، ٢٠١٠م.

خليل أحمد خليل: معجم الرموز، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، دت.

علي الخطيب: اتجاهات الأدب الصوفي، دار المعارف، القاهرة، ١٤٠٤هـ.

محمد طرشونة: مدخل إلى الأدب المقارن وتطبيقه على ألف ليلة وليلة، ط٢، مؤسسة باي للنشر والطباعة والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م.

محمد عبد المنعم الخفاجي: الأدب في التراث الصوفي، مكتبة غريب، دت.

المراجع المترجمة:

لوثي لبويث بارت: أثر الإسلام في الأدب الإسباني: من العصور الوسطى إلى الوقت الحاضر، ترجمة: محمد نجيب بن جميع، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية والتوثيق والمعلومات زغوان، تونس، ١٩٩٠م.

فيدريك غارسيا لوركا: الديوان الكامل، ترجمة: خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٩٢.

غدران وصهاريح، وينابيع

...الطفل كان وحده

مع المدينة النائمة في الحلق

ونبع يتدفق من الأحلام

يدفع عنه جوع الطحالب

...أريد أن موتي على جرعات

وأريد أن أملاً قلبي طحلباً

لكي أرى جريح الماء^{٣٩}

تتسع دائرة الحلم الكبرى في هذه القصيدة لدى الشاعر ليبدأ الرحلة بالاعتراف برغبة غامضة للنزول إلى البئر، هذا المكان المائي الذي يؤدي وظيفة الإخفاء والترميز لحالة شعورية غامضة بحثاً عن الخلاص لتظهر لنا صورة "غرناطة" التي تعبر عن فضاء رمزي، يشكل نقطة تحول هامة غيرت مسرى التاريخ متجاوزة في ذلك الفضاء الحميمي للشاعر، لتصبح مدينة الحلم تكي ماضياً معيداً.

تتحرف صورة "الماء" الذي هو مصدر الحياة والوجود ليلتصق بـ"الجريح" المتخن بالألام والجراح، وبهذا تتشكل محورية هذه القصيدة من رحم الحلم الغرناطي الذي يصطدم برجفة الطفل الجريح ودموعه في لحظات الجوع والفقر التي عاشها فعلاً الإسبان إبان الحرب الأهلية، يبحث فيها لوركا عن الخلاص المتمثل في الموت للانبعاث من جديد.

الخاتمة:

نستنتج مما سبق أن الرمز الوفي المتمثل في الماء تحول من نسق السكينة والطمأنينة إلى نسق الحرب والفقدان حاول لوركا أن يصل إلى نقطة الفناء والخلاص للانبعاث من جديد، وامتزج الرمز الصوفي مع باقي مكونات القصيدة اللوركية وسياقها التاريخي في تناغم وانسجام، وحوّل الرمز الصوفي شعر لوركا إلى فضاء يتفاعل فيه

٣٩- لوركا، فيديريك غارسيا، الديوان الكامل، ٢٦٩-٢٧٠.



Bernabé López García: Africanismo y orientalismo en España (1860-1930), Revista Awraq Anejo, Madrid, 1990.

Eduardo Dizy Caso: Les orientalistes de l'école espagnole, ACR Edition, France, 1997.

Luce Lopez Baralt: Culturas en la Edad de Oro, Editorial Complutense, Madrid, 1995.

المصادر الأجنبية:

Federico García Lorca: Obras Completas, French & European Publications, Incorporated, 1990.

المراجع الأجنبية:

Asin Migue Palacios: Sadilies y Alumbrados, Hiperión- Juvenile Nonfiction, Madrid, 1990.